رواية تنكرد

القسم الثاني

الفصل الاول

مضى اسبوع الاحتفال وانفرط عقد المدعوين ولم يبقَ منهم الاَّ الاقارب الادنون الوافدون من اماكن بعيدة . وكان قلب الدوقة طافحاً سروراً وهي تترقَّب الفرص لكي تتكلم مع ابنها وتخبرهُ عمَّن اختارتها زوجةً لهُ . فارسلت تدعوهُ اليها فقبل لها انهُ في مكتبة ابيهِ فتبسَّمت وهي تحسب ان اباهُ كان يخبرهُ حينئذٍ بما دار بينهما من الحديث

وكان الدوق في مكتبتهِ واكثر ما فيها تقارير سياسيَّة وكتب شرعية وادبيَّة وخرائط وتماثيل وهو جالس على كرسيهِ وقد ابعدهُ عن مكتبهِ بغتةً وبدت على وجههِ دلائل الحيرة وابنهُ واقف امامهُ متكئٌ بيدهِ اليسرى على طنف الموقد وهو ممتقع الوجه يظهر عليهِ الاهتمام بامرٍ ذي بال

قال الدوق لابنهِ " لقد ادهشتني فاني كنتُ احسب انك تسرُّ بذلك غاية السرور[1] " فحنى رأسهُ قليلاً ولم يفه بكلمة وبقي ابوهُ يتكلَّم فقال

" لماذا لا تحب ان تدخل مجلس النواب الآن . ولا يخفى عليك ان الامر ليس في يدنا فاذا لم تدخلهُ اليوم فما ادرانا انك تستطيع دخولهُ غداً . ولو كان دخولهُ سهلاً مثل استئجار قطار مخصوص لابقيناهُ الى الوقت الذي نختارهُ . وكنت احسب انك تبغض الكسل وتحبُّ العمل ولا سيما الاعمال العموميَّة التي تخدم بها بلادك . فاذا لم تدخلهُ الآن اضطررتَ ان تبقى ثلاث سنوات الى ان ينفضَّ ويعاد انتخاب النواب — ثلاث سنوات تقضيها في الكسل والعطلة عن العمل . ليس هذا شأن من يحبُّ بلادهُ ويتوخَّى خدمتها كما اتوسَّم فيك . واذا كان لك مطامع اُخرى فهذه هي الفرصة المناسبة فان الدوق[2] يفضِّل اعطاء المناصب للاعيان حاسباً اياهم سياج الدولة وعماد البلاد كما قال لي . ولا انكر انهُ يمكننا ان نفيد دولتنا ولو لم نكن من وزرائها ولكن الدوق مطلق اليدين يفعل ما يشاء فاذا دخلتَ مجلس النواب الآن واعربتَ عن رغبتك في المناصب العالية فكُنْ واثقاً انهُ يقلدك منصباً منها سريعاً . وعندنا اللورد

(١) مشيراً الى عرضهِ عليهِ الانتظام في مجلس النواب على ما قيل في الفصل السابق

(٢) اي دوق ولنتون الذي كان الوزير الاوَّل

اسكدايل وهو يدبّر لنا الامر على ما نحب . وانا اكره ان اطلب شيئاً من وزير ولكنني لا استنكف ان اطلب ذلك بنفسي من الدوق في الاحوال الحاضرة" . ثم خفض صوته وقال "واظن انهُ اذا طلب دوق بلامنت امراً مثل هذا لا يُردّ طلبهُ" . وصمتَ قليلاً وهو يحسب ان صمتَ ابنهِ دليل على اقتناعهِ ثم قال "هب ان هنفرفرد لا يرضى ان يتخلّى عن العضوية بعد ثلاث سنوات وذلك محتمل ولو لم يكن مرجّحاً فماذا تفعل لانهُ ما من احد يرضى منك بالازدراء وهو يضرُّ نفسهُ لينفعك وما عهدنا هذا الرجل يرضى ان يكون صورة في منصبهِ وهبْ انهُ كان كذلك فقيامهُ في مجلس النواب هذا الزمن الطويل قد رقّع نفسهُ حتى لا يرضى بالذل . ولا يسهل عليَّ ان اخذلهُ بعد ثلاث سنوات واحمل المنتخبين على الاقتراع لك"

فقال لورد منتكيوت "لاداعي لذلك يا ابتاهُ" — قال هذا بصوت منخفض خارج من رأسهِ وفؤادهِ يدلُّ على ان كلامهُ صادر عن عقل راجح وعواطف حيَّة . ولا ادلَّ على المرء من صوتهِ . فمن الاصوات السريع الرنّان الذي يدلُّ على سرعة الخاطر وتنبُّه العواطف ومنها العميق البطيء الذي يدل على عقل ثاقب ورأي صائب . واندر الاصوات واحسنها وقعاً صوت يجمع بين السكينة والصراحة فتفعل نغمتهُ بالنفوس اكثر مما يفعل بها سحر العيون "لاداعي لذلك يا ابتاهُ ولا اخفي عليك اني لا اكون بعد ثلاث سنوات ارغب مني الآن في دخول مجلس النوّاب"

فنظر اليهِ ابوهُ نظر الدهشة وقال "ان المستر فوكس[٣] دخل المجلس قبلما بلغ من الرشد وتربّع في دست الوزارة وهو في ريعان الشباب وكذلك السر روبرت پيل انتظم بين رجال الدولة وهو حدَث . وكثيراً ما سمعتُ الثقات مثل لورد اسكدايل يقولون ان الانسان قد يتكلّم في مجلس النوّاب قبلما يحق لهُ الكلام فيهِ ولكنهُ لا يبكّر في دخولهِ مهما كان صغير السن"

فقال ابنهُ "نعم اذا شاء ان يفلح في مجلس النواب . والتبكير في كل شيء مدعاة للنجاح فيهِ اما انا فلا رغبة لي في ذلك"

فقال الدوق "ولكنني لا استحسن دخولك مجلس الاعيان من غير ان تدخل مجلس النواب اولاً لان من دخل مجلس الاعيان وهو لم يدخل مجلس النواب يكون كالطائر بلا ريش"

فقال ابنهُ "عسى ان لا ادخل مجلس الاعيان يا ابتاهُ الاَّ بعد زمن طويل جداً[٤] ان دخلتهُ"

---

(٣) وزير انكليزي مشهور دخل مجلس النواب وعمرهُ ١٩ سنة وصار وزيراً وعمرهُ ٢٣ سنة

(٤) كناية عن طلب طول العمر لابيهِ لانهُ لا يدخله الاَّ بعد موت ابيهِ خلفاً عنهُ

فقال الدوق " ان دخولك مجلس الاعيان يوماً ما امرٌ محتوم لا مردَّ لهُ "

فقال ابنهُ " ولكن هبْ ان الدوق (اي دوق ولنتون) لم يفلح في حفظ السيادة للاعيان فماذا يكون شانُنا "

فهزَّ الدوق كتفيهِ وقال " ليس من شاننا ان نفرض هذه الفروض وعسى ان لا يحاول احد تغيير النظام الحاضر لان عظمة هذه البلاد باعيانها "

فقال ابنهُ " اذاً ملوكنا لم يفعلوا شيئاً لعظمتنا "

الدوق — " بلى فعلوا ما يُطلب منهم "

ابنهُ — " وقد زالت سطوتهم الآن ولا يبعد ان تزول سطوتنا نحن ايضاً بعد ان نفعل ما يُطلب منا "

الدوق — " اراك تتكلم بلسان الاحرار فلماذا ذلك "(٥)

ابنهُ — " ليس هذا يا ابي فاني لم ابدِ رأياً حتى الآن "

الدوق — " اودُّ ان اعرف ما هو رأيك ياولدي او ما تتمناهُ "

ابنهُ — " أن افعل ما يجب عليَّ فعلهُ "

الدوق — " احسنتَ وانت عمود في هذه الدولة فاسندها جهدك "

ابنهُ — " يا حبذا لو انبأني احد ما هي الدولة فان الاعمدة التي تشير اليها لا تسند شيئاً وهي متداعية الى السقوط وجوهر فلسفتها ان تُترك الامور على حالها "

الدوق — " ولكننا نعتمد باعتمادنا على حكمة الامة "

ابنهُ — " ثم ماذا "

الدوق — " من الاضمحلال الذي يقع باعيان البلاد وهي تنتقل من حالة الى اخرى "

ابنهُ — " وما هي الحالة التي تحسب البلاد منتقلة اليها "

الدوق — " هذه مسألة يعجز اسكنُا عن الاجابة عنها "

ابنهُ — " ولكن يحق لمن كان جاهلاً مثلي ان يبحث فيها "

الدوق — " نعم ولا شيء يعينك في هذا البحث مثل اتصالك برجال السياسة "

ابنهُ — " لكي اشاركهم في الخطاء والاعتساف اما انا فلم أُغرَ حتى الآن واودُّ ان ابقى بعيداً عن الغواية "

---

(٥) يظهر من كلام دوق بلامنت انهُ كان من حزب المحافظين مثل اكثر اعيان الانكليز ولهذا استغرب كلام ابنهِ

الدوق — " وتبقى عطلاً عاجزاً عن العمل "

ابنهُ — " أيكون المرء عاجزاً عن العمل اذا ابى ان يخبط خبط عشواء في ظلام دامس "

الدوق — " فماذا تريد ان تفعل اذاً وهل لك خطةٌ تودُّ السير فيها "

ابنهُ — " نعم "

الدوق — " احسنتَ ومهما كانت هذه الخطةُ فثق اني ابذل جهدي في انالتك ما ترغب فيهِ لاني واثق انك لا تطلب الاَّ اشرف المطالب وانبلها "

ابنهُ — " يا حبذا ولكن اين الشرف واين النبل "

الدوق — "ولكنك طالبٌ امراً ما فقل لي ما هي مطالبك اخبرني بها من غير كتمان كما يخبر الصديق صديقهُ "

فادنى لورد منتكيوت كرسيَّاً من ابنهِ وجلس اليهِ وهو يقول "كيف اكتم عنك امراً يا ابتاهُ وانت عين الحب والإخلاص وكان الواجب عليَّ ان لا ارتاب في وجود الشرف والنبل وانت امامي "

فقال الدوق " ان الاولاد الذين مثلك يشرّفون آباءهم "

ابنهُ — "ليس ذلك مضطرداً واما انت يا ابي فقد كنت لي اكثر من اب واني لأحبُّك واحب امي حبًّا اظنهُ اندر في هذا العصر منهُ في العصور الغابرة ويزيد شعوري بهذا الحب الآن لاني عازم ان اطلب الابتعاد عنكما الى حين "

فاصفرَّ وجه الدوق واتكأ على كرسيهِ ولم يفه بكلمة وصمت ابنهُ قليلاً ثم قال " لقد اشرتَ عليَّ اليوم ان انتظم في سلك رجال السياسة وما انا لأنوء تحت الحمل الثقيل ومقامي وطبعي يدفعاني الى حمل الاحمال الثقيلة والقيام باعبائها . وهذا الامر ليس جديداً عندي بل قد فكَّرتُ فيهِ طويلاً فلم اجد اني استطيع ان احافظ على السياسة الحاضرة ولا رأي لي ببقائها على حالها ولا اظنها تبقى طويلاً لانها ليست قائمة على قواعد وطيدة بل لا قاعدة لها. فما هو الحق السياسي وما هي آداب الاجتماع هل هي امور حقيقية او مصطلحات وهمية . وان كانت امورًا حقيقية فاين مقرُّها ولمن الحقُّ في الولاية ولماذا حرمنا ملوكنا من حقوق كانت لهم . ونحن الاعيان موجودون في مناصبنا لان الامة راضية بوجودنا فيها . والامة تعدُّ نفسها كلا شيء والحقوق التي تعطاها وقت انتخاب الاعضاء لمجلس النواب تنازَع فيها دواماً وتُغيَّر على اساليب شتى فما هو هذا الحق السياسي المتغير. وكذلك آداب الاجتماع تختلف باختلاف البلدان والمدن والشوارع فما نعدُّهُ فضيلة هنا يُعدُّ رذيلة في مكان آخر "

الدوق — " يجب ان ننظر الى الامور بوجه عام فان حالة انكلترا العامة اصلح من حالة اية مملكة كانت وما من احد ينكر ان الحرية السياسية عندنا اكثر مما هي عند غيرنا والآداب الاجتماعية ارقى والنجاح المادي اعظم "

ابنهُ — " قد يمكنني ان انازع في ذلك كله ولكنهُ لو ثبت ما نقض شيئاً مما قلتهُ لانهُ اذا كانت البلدان الاخرى افسد من بلادنا لم تصطلح حالنا بل قد تزيد فساداً لاننا لا نرى امامنا بلاداً صالحة نقتدي بها "

الدوق — " لا شبهة في ان انكلترا مفلحة الآن اكثر من كل البلدان انظر سككك الحديد وانظر كم عملنا لاصلاح شأن المساكين وقد كثرت الاعمال وزادت الاجور "

ابنهُ — " من المحتمل ان سككك الحديد افادت جمهور الفقراء كما افادت اعضاء مجلس النواب . ولكني لا ارى في زيادة الاجور ضماناً لراحة الجمهور وما ادرانا ان زيادة السعة ترقي الآداب وتزيد الفضائل فان المال قد افسد الكبراء واليهِ تنسب شرور الخاصة فكيف يكون فعلهُ في العامة على الضد من فعلهِ بالخاصة ولماذا لا نقول ان زيادة السعة تفسد العامة كما افسدت الخاصة وكيف يحق لنا ان نخلط بين سعادة الامة وثروتها "

الدوق — " لا تنسَ اننا عائشون عيشة صناعية لا طبيعية "

ابنهُ — " طالما سمعتُ ذلك يا مولاي ولكنني لا ارى شيئاً من مزايا الصناعة في احوالنا فان الصناعة تستلزم النظام والترتيب وانطباق النتائج الحميدة على المبادىء الفاضلة اما نحن فقد فقدنا كل انتظام ولم نعُد امة محكمة العرى ولكن صرنا شعباً تجمعهُ آثار التقاليد القديمة التي نحاول نزعها يوماً فيوماً "

الدوق — " ولكن ماذا يمكنك ان تفعل يا ولدي ايمكنك ان تغير الاحوال التي وُجدنا فيها "

ابنهُ — " كلاَّ يا ابي ولا انا طامع في ذلك وغاية ما اطلبهُ منك ان لا تضطرَّني الى مشاركة غيري في تكثير الفساد المحيط بنا "

الدوق — " انت وليُّ امرك وانا اشور عليك شوراً ولا ادرك امراً والله الهادي الى سواء السبيل "

ابنهُ — " اواه لو ان ملاكاً ينزل من السماء ويزور بيتنا "

الدوق — " ما بنا حاجة اليهِ وعندنا ارشاد من هو اسمى من الملائكة "

ابنهُ — " لو كان ارشادهُ كافياً ما وعد تلامذتهُ بمرشد آخر يأتي بعدهُ . فلا بدَّ من

مرشد . نم يا ابناهُ هذا الذي اطلبهُ واسعى اليهِ ولا بدَّ من الفراق . لا بد من ان اتركك واترك والدتي العزيزة اترك هذين الوالدين الحنونين اللذين بهما تتعلق كل عواطفي وآمالي . ولكني ارى نفسي مضطرًّا ان البّي نداء صوتٍ سماويٍّ . فلا تغضب عليَّ ايها الوالد الحنون بل سامحني وساعدني ". قال ذلك وطرح نفسهُ بين ذراعي ابيهِ

قضمهُ ابوهُ الى صدرهِ ولم يستطع الكلام لشدة انفعالهِ لكنهُ كان يقول في نفسهِ انهُ سيفارقنا وقد سئم الاقامة في البيت سئم الوحدة بعد ان قرأ كثيرًا وافتكر كثيرًا . ولقد اصاب اسكدايل لما اشار عليَّ منذ سنتين ان ارسلهُ الى باريس لكنَّ امهُ لم ترضَ وحقها ان لا ترضى لان ارسالهُ الى باريس يعرضهُ لمخاطر كثيرة . ولا شيء اصلح لهُ من مجلس النواب فانهُ يجد فيهِ عملاً وسلوى . ولا بدَّ من ان نتلافى الامر الآن بالتي هي احسن . يريد السفر ولا بأس بالسفر ولكن ماذا يحلُّ بنا وهو ولدنا الوحيد . كيف تصبر كاترين على فراقهِ انها تموت كمدًا اما انا فلا بدَّ لي من الصبر وسأُرسل معهُ اناسًا يعتنون بهِ ويدرأون عنهُ المخاطر ارسل معهُ براس فانهُ عارف بممالك اوربا وكان في حرب اسبانيا وارسل معهُ طبيبًا ماهرًا ولا بدَّ من اخبار امهِ ولكن لا بد من استعمال الحكمة في ذلك لئلا يفاجئها الخبر مفاجأةً

هذه الخواطر خطرت كلها على بال الدوق في اللحظات القليلة التي كان فيها ضامًّا ابنهُ الى صدرهِ ثم لما عاد ابنهُ الى كرسيهِ قال لهُ "اذًا انت تريد السفر ياولدي" فاشار بالايجاب

الدوق — "ذلك يثقل على امك كثيرًا حتى لا اقول شيئًا عن نفسي فانك تعلم عواطفنا ولكن لا حق لنا ان نجعل ما تشعر بهِ عقبة في سبيلك وان فعلنا فنكون قد فضلنا نفسنا عليك اما من حيث مجلس النواب فسنقابل هنفرفرد هذا الصباح واقنعهُ ليؤجل استعفاءهُ الى الخريف حتى تعود من سفرك وذلك خير لك لانك تكون قد شاهدت العالم فتدخل المجلس في العام المقبل "

ولما اتمَّ الدوق كلامهُ بدت على وجه ابنهِ علامات الحيرة فاحنى رأسهُ وبقي صامتًا . وقام الدوق ونظر الى ساعتهِ وقال انهُ يود ان يأتي براس ويتعشى معهم لانهُ عارف بالبلدان الاوربية ويعرف لغات كثيرة حتى الاسبانية ثم قال "اما اسبانيا فليس فيها ما يشوق السياح اليها ولكن لا بدَّ من الذهاب الى فرنسا وفرنسا هي باريس ولا بدَّ من ان تذهب الى هناك اولاً وان كان ابن عمك هري هوَرْد هناك فهو يريك كل شيء فاذا ذهبت الى السفارة وكان براس معك هانت عليك باريس . ثم تذهب الى ايطاليا واظنك قاصدًا اليها دون سواها لكن امك لا تسرُّ بذهابك الى رومية . ويقال ان لا بدَّ للمرء من ان يرى رومية

قبل موته اما انا فلم ارها ولم اعبر البحر الاَّ الى ارلندا لان جدك منعني من السفر غير ان منعهُ لي لم يكن للاسباب التي لاجلها ابقيناك في البيت حتى الآن . وهب انك شتوت برومية فيمكنك ان تعود الينا في الربيع التالي ولكن لا بدَّ من اقناع امك اولاً لترضى ببقائك في رومية ولا بدَّ ايضاً من ارسال برنارد معك فيذهب معك براس وبرنارد وطبيب وحينئذٍ يسهل علينا اقناعها فاذا ارسلنا معك براس وبرنارد وطبيباً ماهراً وكان هري هورد في باريس وزوَّدناك باحسن مكاتيب التوصية زالت اكثر مخاطر السفر"

فقال لورد منتكيوت[٦] " لا رغبة لي في زيارة باريس يا ابي "

الدوق — " الحمد لله الحمد لله لقد افرجت بعض كربتي "

ابنهُ — " ولا رومية "

الدوق — " احسنت احسنت يا ولدي وازلت حملاً ثقيلاً عني ولم اخبرك بذلك قبلاً لانني لم اشأ ان انغص عيشك ولكن لو علمت امك انك ذاهب الى رومية لتنغَّص عيشها لا لبعد المسافة ولا لفساد الهواء هناك بل لان آراءها كما تعلم " ولم يتم كلامهُ فقال لهُ ابنهُ "ولا انا عازم على السفر حسب مفهوم الكلمة وانما قصدي السياحة قصدي الذهاب الى الارض المقدسة الى بيت المقدس"

فاضطرب الدوق وجعل يقول " الى الارض المقدسة الى بيت المقدس " وهو محدق بنظرهِ اليهِ

ثم عاد لورد منتكيوت الى الكلام وجعل يتكلم بتأنيهِ المعتاد فقال " نعم يا مولاي الى الارض المقدسة الى بيت المقدس فان الخالق عزَّ جلالهُ اعلن نفسهُ لمخلوقاتهِ في تلك البلاد فهي مقدَّسة وفيها مزايا ليست في غيرها وهي التي جعلت ممالك اوربا تحاول الاستيلاء عليها مراراً كثيرة في العصور الوسطى . وقصر منتكيوت هذا ارسل اميراً من امرائهِ اليها فوصل الى القبر المقدَّس وجثا على ركبتيهِ امامهُ ثلاثة ايام بلياليها . وقد مرَّ على ذلك ستة قرون فلا عجب اذا مضى واحد آخر منا الآن لزيارة ذلك القبر فاني اود ان اجثو على ركبتيَّ هناك واري التلال المقدسة وارفع صوتي الى السماء وأسأل الله عمَّا يجب ان افعلهُ وعمَّا يجب ان اومن بهِ"

فنهض دوق بلامنت وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً وايباباً وهو غائص في بحار الافكار ثم وقف واستند الى خزانة الكتب وقال " ان هذا الطلب الذي تطلبهُ مني غريب جدًّا لم اتوقعهُ منك قط فافكر فيهِ مليًّا واحاول ادراك ما تطلبهُ وابذل جهدي لافعل ما هو خير

(٦) هو لقب الابن كما تقدم في الجزء السابق

لك وابقى مفضلاً مسرَّتك على مسرَّتنا . اما الآن فلا يمكنني ان اجيبك لا سلباً ولا ايجاباً بل لا بدَّ لي من امعان النظر . ثم ان امك تريد ان تكلمك في امور اخرى فلا تطلعها على هذا الامر حتى اطلعها عليهِ انا . والآن لا بدَّ لي من ان اركب وامضي الى بلامنت وسافكر في هذا الامر وانا سائر في الطريق واذا جاء براس فادعهُ ليتعشَّى معنا وليكن الله معك "

وخرج الدوق من المكتبة وبقي ابنهُ فيها غائصاً في بحار الافكار وكان قد املى على ابيهِ في دقائق قليلة خلاصة ما شغل بالهُ ثلاث سنوات متوالية . ثم التفت واذا امهُ واقفة بجانبهِ فانهُ بانها ان زوجها خرج من القصر وهذه اول مرة خرج فيها من غير ان يراها قبل خروجهِ فقامت تفتش عن ابنتها لكي تهنئهُ بدخولهِ مجلس النواب وتخبرهُ انها اختارت لهُ ابنة خالهِ زوجةً وكان قلبها طافحاً سروراً وكيف لا تسرُّ المرأة بوحيدها وهي تراهُ محفوفاً بالسعادة والهناء وقد عزم على الانتظام في سلك رجال السياسة الذين يخدمون بلادهم ويرغمون شانها والاقتران بفتاة لتق انها تملأُ بيتهُ بهجةً وسروراً . ففتحت باب المكتبة وقد صبغت حمرة الطرب وجنتيها وقالت أأنت هنا فقد كنت افتش عنك يا تنكرد

الفصل الثاني

عاد الدوق مساء من قصر بلامنت ودخل غرفة لبسهِ لكي يلبس فيها ثياب المساء ثم جاءت زوجتهُ وقرعت الباب ودخلت وعاتبتهُ على خروجهِ من البيت من غير ان يخبرها وقالت ان هذه اول مرة فعل ذلك . وكان قد حسب انها اتت لتكلمهُ في امر ابنهِ فلما رآها اتت لتعاتبهُ فرَّج عنهُ وابرقت اسرَّتهُ وقال لها بلغني ان براس آتٍ ليتعشَّى معنا وانا مسرور بذلك لانني اريد ان اراهُ في امر ما

فلم تجبهُ على كلامهِ بل بقيت واقفة كأن بالها مشغول بامر آخر ولما رأت انهُ بقي يتكلم عن براس قالت لهُ ما لنا ولبراس الآن هات اخبرني ما منع تنكرد من دخول البارلمنت (مجلس النواب)

فاضطرب في امرهِ لانهُ لم يكن يعلم كم عرفت مما دار بينهُ وبين ابنهِ غير انها جلت لهُ الامر بقولها " انني كنت امشي مع تنكرد واشرتُ من طرفهِ خفي الى كل ما دبرناهُ لهُ وسألتهُ عما يراهُ في ابنة خالهِ فقال انهُ يوافقنا على انها احسن البنات اللواتي عرفهنَّ واكثرهنَّ تهذيباً فحاولت ان اقنعهُ بمناسبتها لهُ ولكنني لم احثهُ على التسرُّع في ذلك لانني لا اريد ان يقترنا قبل الخريف واشرت عليهِ ان يعاشرها كثيراً مدة اقامتهِ في لندن وقت اجتماع مجلس النواب

ثم يزورها حينما تعود الى ارلندا كما كنت تزورني وبينما انا اشرح لهُ كيف يجب ان يتحفظ من البرد وقت خروجهِ من المجلس نصف الليل وماذا يجب ان يأكل حينئذٍ قال لي انهُ غير عازم على دخول المجلس الآن وانهُ غير آسفٍ على ذلك لانهُ يريد ان يسافر قليلاً . فما معنى ذلك كلهِ قُلْ لي لان تنكرد لم يخبرني شيئاً ولما لججت عليهِ ليخبرني قال اننا سنبحث كلنا معاً في هذا الموضوع "

فقال الدوق "نعم سنفعل ذلك ولكن ليس الآن لانهُ قد حان وقت العشاء ولكنني اقول لكَ بالاختصار انهُ بدت امور قد تمنع هنفرفرد من الاستعفاء الآن . وبما ان تنكرد يميل الى السفر فنحن عازمون ان نتبصر في الامر لعلَّ السفر يكون اصلح لهُ من الاقامة هنا الى ان يتيسر دخولهُ مجلس النواب "

" اصلح لهُ " — لا يمكنني ان افهم اي صلاح في الذهاب الى باريس ورومية حيث يذهب الشبان الذين يسافرون من هذه البلاد . فان الذهاب اليهما هو نفس الشيء الذي بذلت جهدي من حين ولادتهِ الى الآن لامنعهُ عنهُ لانهُ اذا ذهب اليهما تعرَّض للهلاك جسداً ونفساً فان باريس تتلف صحتهُ ورومية تغير معتقدهُ "

فتبسم الدوق وقال لها اني اشدُّ منكِ ثقةً بتنكرد ولكن كوني مطمئنة البال فانهُ قد قال لي هذا الصباح انهُ لا ينوي الذهاب الى رومية ولا الى باريس

فتنفست الصعداء وقالت " اذاً اذا اراد ان يسيح سياحة قصيرة في هولندا فلا بأس عليهِ لان البلاد بروتستانتية وليس فيها من المفاسد ما في غيرها "

فقال " سننظر في هذا الامر ملياً الليلة " ثم مدَّ لها ذراعهُ ونزلا الى غرفة الضيوف

وكان الكولونل برامبر هناك وهو من القوَّاد الذين كانوا في حروب اسبانيا فابلى بلاءً حسناً ودخل باريس ظافراً وهو بدين طويل القامة تجدول العضل وجههُ مشرَّب حمرةً وشعرهُ غزير وخطهُ الشيب . وهو من رجال متنكيوت ولد هناك وورث بيتاً كبيراً في المدينة واملاكاً في جوارها ولما تمَّ خدمتهُ في الجيش باع معاشهُ وعاد الى مسقط رأسهِ فجعلهُ الدوق قائداً لفرسانهِ فاصلح شأنهم حتى صاروا من افضل فرسان البلاد الانكليزية . وكان من امهر الناس في الرماية والفراسة ومن اكثرهم ظرفاً والينهم عريكة واقواهم بداهةً وكان يحب بالدوق والدوقة الى حد العبادة ويحسبهما افضل خلق الله عن اعتقاد واخلاص لا عن هوًى وطمع في النفع . وكأنهُ كان ذراع الدوق اليمنى فكان الدوق يستشيرهُ في كل امور الايالة وقد سلَّم اليهِ قيادة الفرسان وجعلهُ رئيساً لاركان حرب الجيش المتحفظ (المليشيا) ولم يكن يرقى ضابطاً

الاَّ برأيهِ . وكان لهُ شأن رفيع في الايالة كلها وقد اختير تلك السنة محافظاً لمدينة منتكيوت ورئيساً للجنة الاحتفال ببلوغ لورد منتكيوت سن الرشد وهو الذي اهتمَّ بالالعاب النارية ويقال انهُ هو الذي رسم اشكالها

وكان هناك ايضاً المستر برنارد معلم تنكرد وهو قسٌّ عالم كبير في المسائل الدينية بلغ الخامسة والثلاثين من العمر وكان ساكناً في قصر منتكيوت يقوم بالخدمة الدينية فيهِ ويعتني بالمكتبة ويستخدمهُ الدوق احياناً في كتابة مكاتيبهِ

وكانت فيهِ عائلة منتجوى ودُعي ابن هنغرفرد فجلسوا كلهم على المائدة جلسوا سكوتاً على خلاف المعتاد فان الدوقة كانت تنكر في ما رأتهُ من ابنها والدوق في ما اطلعهُ عليهِ وبنات منتجوى كن قليلات الكلام طبعاً وامهنَّ كانت جالسة بجانب الدوق فلم تستحسن ان تكلم احداً غيرهُ وزوجها نهم بنسى غيرهُ وهو يأكل . وتكلم لورد منتكيوت مع ابن هنغرفرد وكان جالساً امامهُ على المائدة لكن هذا كان يتكلم مع ابنة منتجوى فاجاب لورد منتكيوت على كلامهِ اجوبةً مختصرة ولم يزد فانقطع الكلام بينهما

ولما قُدِّم اللون الثاني من الطعام ورأى الدوق ضيوفهُ صامتين كأنهم في مأتم اراد ان يصرفهم عن تلك الحال فالتفت الى الكولونل براس وكلمهُ في موضوع يلذُّ لهُ وينبه فيهِ قوة الجدل وكان جالساً عن يسار الدوقة فتلقى الموضوع بسرور وجاول الدوق في الحديث بمهارة فارس مجرب فعلت اصوات الجماعة وكثر لغطهم واخذوا يتنادمون ويتعاطون كؤوس الراح ولما رأى لورد منتكيوت ان اباهُ يريد ان يتحدَّث ضيوفهُ ويسرُّوا قاد ابنة منتجوى الى حديث يسرُّها فجعلت تحدثهُ عمَّا جرى لها في الصباح وهي خارجة الى النزهة راكبة وهو يظهر الاستغراب مرة والارتياب اخرى وهي تحاول اقناعهُ واثبات قولها الى ان اشتغل الكل بالحديث وطابت نفوسهم . ودار الحديث بين الدوق والكولونل علي السر رسل ملباس وانكسار رجلهِ واستدعائهِ الدكتور روبي . قال الكولونل " وقد استدعاهُ السر رسل دون غيرهِ من مشاهير الجراحين لانهُ يعرف مزاجهُ ولا يحسن باحد ان يسلم نفسهُ الاَّ الى طبيب يعرف مزاجهُ فانني انا كنت فقدت رجلي مرةً في حرب اسبانيا لولا شدة حذري فقد جُرحت جرحاً طفيفاً في واقعة الميدا وانا اطارد العدو ولكن لا يحسن بنا ان نتكلم عن هذه الامور امام السيدات "

فقال لهُ لورد منتكيوت " ان الامر على ضد ذلك فانهُ لا شيء احب الى السيدات من وصف الحروب وقد قالت لي مس منتجوى امس انهُ لا شيء اصعب عليها من ان تتصوَّر كيفية القتال "

فقال الكولونل " ذلك لان اكثر الذين وصفوا المعارك ليسوا من قوّاد الحرب . ولكن المعارك التي وصفها نبير جلية كلها و يمكنني ان اصور كل معركة منها على هذه المائدة وهي تاريخ عظيم غير ان هذا التاريخ لا يخلو من النقص مثال ذلك ان واقعة الميدا التي اشرت اليها وكدت اخسر رجلي فيها لم تذكر فيه " —

الدوق — " ولكن رجلك لم تصب بمكروه "

الكولونل — " لم يقيت سليمة ودخلت بها باريس وتلك حادثة تستحق الذكر واؤكد لدموكم انني خلّصت رجلي من القطع لانني اعرف مزاجي . ولذلك ارجو ان تسلم رجل السر رسل ملباس لان الدكتور روبي يعرف مزاجه وانا لو كنت في جبل طارق ومرضت هناك لكنت ارسل استدعي هذا الدكتور لانهُ يعرف مزاجي ومعرفة المزاج نصف العلاج "

ولما كان الكولونل يتكلم عن الدكتور روبي كان الدوق يفكر في امره ويقول هذا طبيب يعالجنا كانا و يعرف مزاج ابني فلا بدّ من ارساله معهُ معها كلفني ذلك من النفقات . وجعل يحسب دخل الدكتور روبي في باله فقال ان دخلهُ لا يزيد على خمس مئة جنيه في السنة فادفع لهُ الف جنيه ونفقات السفر كلها ولا اظن انهُ يغيب اكثر من سنة فلا يتركهُ زبائنهُ في هذه المدة القصيرة لان اكثر اعتماده على قصرنا واذا تركوهُ عوّضناهُ من الخسارة ولا بدّ من ان يكون طبيب تنكرد عارفاً بمزاجه لان معرفة المزاج نصف العلاج

الفصل الثالث

الدوقة وهي تفرك يديها امّ — " واتعساه واحرّ قلباه "

الدوق — " خفّفي عنك يا عزيزتي "

الدوقة — " كان يجب عليك ان تمنع ذلك ولا تدعهُ يصل الى هذا الحد "

الدوق — " ولكنهُ فاجأني مفاجأةً وكنت خالي الذهن منهُ كما كنتِ انتِ خالية الذهن منهُ وكيف كنتُ استطيع ان اعرف ما يدور في باله "

الدوقة — " فما النفع اذاً من سلطتك عليهِ التي تقول لي دائماً انك تعتمد عليها فلو كنت انا اباهُ لكنتُ عرفتُ مخبآت نفسه "

الدوق — " قد تكونين مُصيبةً ولكن انت امهُ وهو يحبك كما يحبني وانتِ دائماً معهُ ويجب ان تعرفي امياله من حيث هذا الموضوع اكثر مما اعرفها انا ومع ذلك بقي مقصدهُ مخفياً عنكِ "

الدوقة — " ظننت مرةً انهُ يميل الى بدعة البيوزيين فكلمتهُ في هذا الامر فوجدت انني غلطانة . وانا واثقة انني لم آلُ جهدًا ولا ادَّخرتُ وسعًا في غرس المبادىء الدينية في نفسهِ . وفي العام الماضي اعطيتهُ مجموعًا كبيرًا من الكتب الدينية والتفاسير فكانت النتيجة انهُ يريد ان يتركنا ويمضي الى الارض المقدسة الى بلاد صواؤها يقتل سكانها بلاد حلَّت عليها لعنة الله منذ اكثر من ثمانية عشر قرنًا وهي تزيد خللاً وخرابًا سنة بعد سنة . كيف يمضي ابننا اليها قد خسرناهُ قد خسرناه واحسرتاهُ واحسرتاهُ "

الدوق — " هلمَّ نتبصَّر في الامر قليلاً يا عزيزتي "

الدوقة — " كيف نتبصر وانت قد سلَّمت لهُ بالسفر وقضيت الامر ولم تأتِ الآن لتستشيرني بل لتخبرني بما قرَّ عليهِ القرار لتخبر هذه الام المسكينة بما يصدع فؤادها ويمزق احشاءها. ما اتعس الامهات وما اشقاهنَّ "

الدوق — " لا تتكلمي كذلك يا كاترين "

الدوقة — " كيف اتكلم اذًا وماذا اقول "

الدوق — " قولي كل شيء غير هذا فانهُ لا يُقطَع خيط في هذا القصر بغير رضاكِ "

الدوقة — " كن واثقًا اذًا انني لا اسمح لتنكرد بهذه السياحة "

الدوق — " اذًا لا يمضي ابدًا لا يمضي برضاي فساعديني يا عزيزتي فيتم كل شيء حسب مبتغاكِ ولكنني اكره ان نعامل ابننا بالجفاء والقسوة ولا اريد ان نستعمل سلطتنا الوالدية الاَّ بعد ان تنفد كل الحيل فنلجأ اولاً الى عقلهِ وقلبهِ ثم الى ادلَّتكِ وحبهِ لنا عسى ذلك ان يكفي لاقناعهِ "

الدوقة — " لقد قلتَ لي انك جادلتهُ فلم يقنع "

الدوق — " نعم ولكنكِ اعرف مني بهذه المواضيع بل اعرف مني بكل المواضيع وانا واثق بمهارتكِ ولذلك لم اقطع الرجاء من اقناعهِ بالعدول عن عزمهِ "

الدوقة — " اذًا ساقول لهُ اننا لا نسلم لهُ بهذه السياحة مطلقًا "

ولما قالت ذلك نظر اليها الدوق نظر الحيرة وقال بعد ان فكر في الامر " ان كان هذا هو رأيك فهلمَّ ننظر فيهِ قبل ان نعمل بموجبهِ لانهُ قاطع لكل جدال . وزد على ذلك اني ارى تنكرد مدفوعًا بدافع قوي جدًّا يتعذَّر التغلُّب عليهِ وقواهُ النفسية متنبهة كلها تنبهًا شديدًا جدًّا لا تعرفين مقدارهُ ولا تعرفين مما رأيتِ منهُ مقدار انتباههِ . وقد كنتِ احسبهُ رقيق القلب لين العريكة فوجدتهُ في هذه المسألة صعب المراس جدًّا فاذا جزمنا الآن بمنعهِ عن السفر فلا

عجب اذا سافر بغير اذننا "

الدوقة " هذا ضرب من المحال فانهُ لم يعص امرنا مرةً في عمره " قالت ذلك وهي تنتفض في كرسيها وعلى وجهها امارات الحزم والثقة

الدوق — " وهذا سبب آخر يمنعنا من اخذ الامور بالشدة ولماذا لا نغضي عن محاولته تفضيل ارادته على ارادتنا هذه المرّة الوحيدة في العمر "

الدوقة — " انهُ لم يعاشرنا كثيرًا في هذه السنوات الثلاث الاخيرة توفيها تتكيَّف اخلاق الانسان . ولكن كان يجب على المستر برنارد ان يرى فيهِ هذا الميل وينزعهُ منهُ او ينبهنا اليهِ فلنذاكرهُ في هذا . دق الجرس وقل للخام ليدعوهُ الينا "

وكان المستر برنارد في المكتبة فحضر حالاً ولما وقعت عينهُ عليهما رأى في وجهيهما ما يدل على امرٍ ذي بال فاخبرهُ الدوق بخلاصة ما جرى وكانت الدوقة تذكر الامور التي يفوتهُ ذكرها على اسلوب اوقع الخبر في نفسهِ اعظم وقع

فدهش مما سمع وجلس امامهما جاحظ العينين مفتوح الفم وجعل يردد قولها " الارض المقدسة الارض المقدسة " وأكدَّ لها انهُ لم يسمع من لورد متنكيوت لا صريحًا ولا تلميحًا ما يشير الى رغبتهِ في الذهاب الى تلك البلاد ولا انهُ يرى الآراء الذي ذكرها ابوهُ

الدوقة — " ولكنك كنت رفيقهُ ومعلمهُ عدة سنوات ولا سيما في السنوات الثلاث الاخيرة السنوات التي تتكيف فيها اخلاق الانسان وتتخذ صورة واضحة وكنت تراهُ اكثر مما نراهُ نحن ولا بدَّ من انك كنت تعلم ما يدور في عقلهِ ويختلج فؤادهُ وكان يجب ان تعلم ذلك وتحذرنا منهُ "

ولما قالت ذلك رأى ان لا بدَّ لهُ من الدفاع عن نفسهِ فقال لها " يا مولاتي ان ابنك الكريم قد نال اسمى الجوائز المدرسية وانا اعلمُ وكانت آدابهُ خالية من كل عيب ومعتقداتهُ الدينية كذلك وهذه الفكرة التي بدت منهُ الآن تدلُّ على شدَّة تدينهِ "

فصرخت الدوقة والدموع ملءُ عينيها " كيف نصبر على فراق ولد مثل هذا " . فامسك الدوق يدها وقال للمستر برنادر " نحن شاكرون لك كثيرًا انا والدوقة ولا نأسف الاَّ لاننا لم نعرف من طباع ابننا اكثر مما عرفنا "

المستر برنارد — " مولاي الدوق المحترم لو طلبتم حكمي او حكم الدوقة قبل الآن ان اخبركما ما اعرفهُ عن ابنكما لقلت لكما ما اقولهُ الآن وهو ان لورد متنكيوت عميق جدًّا لا يسبرغورهُ ولا يستطيع احد ان يكتشف بواطنهُ سواءٌ كان من الذين دونهُ او من المساوين لهُ ولم يكن

لهُ عِبثير قط اما انا فني كل السنوات العشر التي تشرَّفت فيها بتعليمهِ لا اذكر انهُ قال كلة واحدة تغض من كرامتي وهو كولد خَجِلٌ سكوت وكرجل — لاني كنت اعتبره رُجلاً في العقل مدة السنوات الخمس الاخيرة ولو كان ولداً في السن — كان يستعملني كآلة لتحصيل العلم والمعرفة . والاقرار بذلك لا يعود عليَّ بالفخر ولكنهُ اتصل بكثيرين من كبار العلماء في اكسفرد وقد عرفت منهم انهُ كان يعاملني فيجلهم و يستفيد منهم كأنهم آلات في يدهِ . وهو كثير الدرس شديد الاجتهاد لا يكلُّ ولا يملُّ لكنهُ لا يسأل احداً عن رأيهِ ولا يعرض رأيهُ على احد . والمذاكرة معكم امس هي اول مذاكرة سمعتُ بها عنهُ وهي تريكم شيئاً من طبعهِ "

فكُسف بال الدوق وغاصت الدوقة في بحار الافكار وصمت الثلاثة بضع دقائق ثم رفعت الدوقة نظرها وقالت بتأنٍّ " يظهر لي الآن اننا لم نكن نعرف طبع ابننا وانتا نشكوك يا مستر برنارد لانك بادرت الينا حالاً في ساعة ضيقتنا وانت مفضل علينا " . ففهم مرادها ونهض وحنى لها رأسهُ وخرج . وحينئذٍ نظر الدوق والدوقة كلٌّ منهما الى الآخر وهما صامتان وودَّت الدوقة ان يبدأ زوجها بالكلام اما هو فبقي صامتاً فقالت بعينين مغرورقتين بالدموع " والآن ماذا تفعل يا جورج "

وكان الدوق قد صمم الرأي على ان يرسل تنكرد الى القدس الشريف و يرسل معهُ الكولونل براس والمستر برنارد والدكتور روبي ليعتنوا بهِ ولكنهُ لم يستطب اطلاعها على ذلك حينئذٍ فاشار عليها ان تتكلم مع تنكرد في هذا الموضوع

فقالت " كلاَّ وخير لي ان ابقى ساكتة الآن ولكن لا بدَّ من بذل ما في الوسع والمبادرة الى تخليصهِ من هذه الورطة باسرع ما يمكن . ومن رأيي ان نخبر صديقنا المطران بذلك وهو يتكلم مع تنكرد ولا شبهة عندي في انهُ يقنعهُ حالاً بالعدول عن هذا السفر لان المسألة سياسية ودينية معاً ومَن اقدر منهُ على حل المشاكل السياسية والدينية لانهُ من كبار رجال السياسة ومن اعلم علماء اللاهوت . هذا هو السبيل الرشيد وسيخجل هذا المشكل طبق المرام ان شاء الله . نعم اننا نثقل على المطران بهذا الطلب لكثرة اشغالهِ ولكن الخطب جَلَل ويجب ان لا نستخفَّ بهِ ونحمل مثل هذه الثقلة عن رجل كريم مثلهُ لاسيما وهو الذي ثبَّت تنكرد وصداقتنا معهُ قديمة . وساكتب لهُ الآن واخبرهُ بخلاصة الامر ثم نقابلهُ غداً ونبسطهُ لهُ بسطاً تاماً فما رأيك في ذلك "

فقال لها " احسنتِ ولا احسن من هذا الرأي " قال ذلك وهو مسرور بانها وجدت شيئاً تتسلى بهِ ولو اياماً قليلة

الفصل الرابع

كان المطران الذي استعانت به دوقة بلامنت على ابنها كبير الهمة كثير التقلب شديد الطمع ينظر الى جزئيات الامور ويحب التعرّض لمشاكل السياسة لا يترك مسألة الاّ وضع اصبعهُ فيها. وكان قليل العلم ضعيف الاستدلال تختلط عليهِ المسائل فيرتبك فيها ويزيد خطاؤهُ على صوابهِ . وكان مقامهُ رفيعاً بين قومهِ ولكنهُ لم يقدهم بعلمهِ ولا باختبارهِ بل زاد مشاكلهم اشكالاً . اذا عثر على رأي وجد فيهِ لمحة من الصواب تمسك بهِ وادّعاهُ كانهُ هو ابتكرهُ ثم اذا وجد ان العمل بهِ يثير عليهِ خصومهُ انكرهُ وابعد عنهُ . فكان امرءاً من غير رأي ليس لكل حالة لبوسها يظهر لك في مظهر اصحاب المبادىء السامية ثم لا يلبث ان يجاري احوال الزمان والمكان

قابل هذا المطران تنكرد مقابلة طويلة وحادثهُ بالاسهاب وكان تنكرد يصغي اليهِ بالوقار التام لكنهُ كان يعترض عليهِ من وقت الى آخر ويحاجهُ ويجادلهُ غير متحاذر حتى وصل الى مسألة الولاية وبين هي بقائمة فصار المطران يسرد العبارات الفخيمة من غير ارتباط ولا انسجام بل من غير معنى واخيراً قال تنكرد

"لا شبهة في ان نظام الاجتماع الانساني وضعهُ الله وكان يدار بحسب شريعتهِ وهو يدار الآن بحسب الشرائع المدنية التي وضعها الانسان اما انا فافضل الشرائع الالهية على القوانين البشرية واودّ ان اعرف كيف نعود الى استعمال الشرائع الالهية"

المطران — "ذلك سهل لان الكنيسة تنوب عن الله على الارض"

تنكرد — "ولكن لم يبق سلطة للكنيسة على احد"

المطران — "اصبتَ غير ان دوام الحال من المحال وقد اخذت السلطة تعود الى الكنيسة رويداً رويداً وحالها الآن على غير ما كانت عليهِ منذ مئة سنة ولا يبعد ان تنجح قريباً في اقامة مطران لمدينة منشستر"

تنكرد — "وما الفائدة من اقامة المطران ونحن في حاجة الى ملاك سماوي يرشدنا الى الحق"

المطران — "عندنا مرشد اعظم من الملائكة ولذلك لم يعد الملائكة يظهرون للناس"

وطال الحديث على هذا النمط ولم يدرك المطران مقصد تنكرد فقال انهُ من اهل الوهم والخيال . ولما رأت الدوقة ان مقابلة المطران لم تجدِ نفعاً أسقطت في يدها وضعفت عزائمها ولكنها لم تستسلم للفشل وقالت في نفسها ان المطران لم يدرك غرض ابني ولذلك لم يستطع اقناعهُ . واخبرت زوجها بما قالهُ وهو ان ابنهما من اهل الوهم والخيال وقالت "انا ارسلناهُ اليهِ لهذه

الغاية لكي يزيل الاوهام من رأسهِ فما معنى تركهُ على هذا الصورة ومهما كانت اوهامهُ فهي ليست اشد من اوهام البيوزيين[٧] فلماذا نرى غبطتهُ بقاومهم ويجادلهم . وهذا من انكى ما أصابنا به. واذ قد فشلنا امام المطران فماذا تشير الآن يا جورج اذ لا بدَّ من اقناع تنكرد بالعدول عن السفر"

فقال لها "يخيل اليَّ ان المطران لم يفلح في اقناعهِ" ثم قال بعد ان صمت قليلاً وهو ينظر من كوَّة الغرفة الى ميدان القصر حيث كان جوادهُ مسرجاً في انتظارهِ "ويظهر لي ان هذه الاوهام لا يزيلها من رأسهِ الاَّ رجل خبير بالعالم"

الدوقة — "رجل خبير بالعالم ماذا يعرف من هذه المسائل الدينية"

الدوق — "يعرف قليلاً منها ولذلك لا يلجأ الى الجدال والجدال لا يقنع احداً بل يزيد المرء تمسكاً برأيهِ . والذي يجادلهُ قد نفحمهُ ولكننا لا نقنعهُ . اما الرجل الخبير بالعالم فيعرف كيف يقنع غيرهُ من غير جدال . وكثيراً ما شاهدت اسكدايل يفعل ذلك فاننا قد نتجادل في امرٍ اشهراً ولا نرى دليلاً يقنعنا فيأتي اسكدايل ويقنعنا بكلمتين لا لان الخبرة تحل المشاكل بل لان المشاكل تزول من امامها كما يزول الضباب من حر الشمس"

الدوقة — "اتستطيع ان تراهُ اليوم"

الدوق — "لا بد من ان يكون اليوم في مجلس الاعيان وسيذهب تنكرد الى مجلس النواب ليسمع الجدال في مسألة مينوث فنطلب من اسكدايل ان يأتي ويتعشى معنا وهو خير من نستشيرهُ في حل هذا المشكل"

الدوقة — "اصبت اصبت ادعهُ للعشاء وقل لهُ ان الخطب جلل ولا بدَّ من حضوره حالاً واخاهُ يلبي دعوتنا ولو كان مدعوًّا الى مكان آخر"

وعاد دوق بلامنت ولورد اسكدايل تلك الليلة متأخرين لانهُ حدث في مجلس الاعيان امر نادر المثال وهو ان الاعيان انقسموا وذلك نادر جداً وقد سرُّوا بهذا الانقسام لانهُ دليل الحياة واكثروا اللغط فيهِ كما تنقُّ الدجاجة اذا باضت . ولم يكن انقسامهم على مسألة خطيرة من المسائل التي لها مساس بسياسة البلاد ولكنهُ كان انقساماً مهمًّا لان الاقلية كانت مع حزب الوزارة والاكثرية ضدها . وقد حدث ذلك عن خطاء فان رئيس المجلس كان نائماً والظاهر ان التخمة اشتدَّت عليهِ فاستيقظ بغتة واخذ يخطب ذاهباً مذهب الحزب المضاد واجتهد الذين بجانبهِ لكي ينبهوهُ الى خطائهِ بجذب طرف سترتهِ فاغتاظ واصرَّ على خطائهِ ولما

(٧) نسبة الى الدكتور بيوزي الذي قام في مدرسة اكسفرد الجامعة وحاول ادخال بعض العقائد الكاثوليكية الى الكنيسة الانكليزية

طلب رأي الاعضاء انقسم حزبهُ فوافقهُ بعضهم على الخطاء واقترعوا مع الحزب المضاد وخالفهُ البعض الآخر وخرج الموظفون لكي لا يقترعوا ضد الوزارة

وجلس الدوق والدوقة ولورد اسكدايل لتناول العشاء في غرفة المكتبة ودار الحديث على ما جرى في مجلس الاعيان وجعل الدوق ينتقد فعل العضو الذي شدَّ بطرف سترة الرئيس فأكد لهُ لورد اسكدايل ان ذلك كثير الحدوث في مجلس النواب وانهُ قد يشدُّ اثنان بسترة المتكلم حتى يضطراهُ الى الصمت والجلوس . وانقضى وقت الطعام ولم يذكر احد اسم تنكرد ولا سأل احد عنهُ . ثم لما فرغوا وخرج الخدم دفع الدوق المائدة من امامهِ وادار كرسيهُ الى نحو الموقد وفعلت الدوقة مثلهُ وقام لورد اسكدايل وحرَّك النار وادار ظهرهُ الى الموقد ووقف ويداهُ في جيبي بنطلونهِ وقال مخاطباً الدوقة " اذاً تنكرد عازم على السفر الى اورشليم "

الدوقة — " هل اخبرك جورج بالقصة كلها "

اسكدايل — " قال لي هاتين الكلمتين وترك تفصيل الخبر لكِ "

فجعلت الدوقة تسرد عليهِ واقعة الحال بالتفصيل والاسهاب وهي تشرح ما حدث وتنتقد آراء ابنها الدينية وذكرت ما دار بينهُ وبين المطران . واخيراً قالت " ويظهر لي ان تنكرد زاد تصمماً على السياحة وانهُ لا شيء يثنيهِ عن هذا العزم "

فقال لورد اسكدايل "ذلك خير من ذهابهِ الى اليهود واستغراقهِ في الدَّين كما يفعل غيرهُ "

" الدوقة — " انا اخالفك في ذلك لان الاستغراق في الدين خير من الموت فانهُ ما ذهب احد الى الارض المقدسة ورجع سالماً لتسلط الحيات عليها "

لورد اسكدايل — " ليأخذ معهُ صندوقاً من الكينا "

الدوقة " اراك تمزح مع انك ترائي اكاد اموت كمداً "

فنظر الى السقف وقال لها "لست امزح ولكنني افكر في حيلة تصرف بها تنكرد عن عزمهِ من غير ان نظهر مضادين لهُ "

فنظر الدوق الى زوجتهِ وقال لها " اسمعي هذا الذي نطلبهُ ان نصرف تنكرد عن عزمهِ من غير ان نظهر مضادين لهُ " ثم قال لورد اسكدايل " انهُ لا يسهل على المرء الذهاب الى اورشليم كما يسهل عليهِ الذهاب الى برمنغام . ولا بدَّ لابنكما من ان يذهب اليها بحاشيتهِ وفي يختهِ ووجود اليخت ليس بالامر السهل ولا سيما اليخت الذي يصلح للسفر من هنا الى هناك لان بحر الروم لا يستخف بهِ وبامواجهِ ولذلك يحق لكما ان تطلبا منهُ ان لا يسافر الاَّ في يخت كبير لا يخشى عليهِ في ذلك البحر فلا يجد يختاً كبيراً يتاعهُ واذا اراد ان يبني يختاً فاما ان يجد في بنائهِ

من المشقة ما يشيب عنهُ او ان يقوى ببنائهِ فيستمرّ عليهِ سنة من الزمان و ينسى السفر الى اورشليم و يمضي الى كومس[٨] بدلاً من المضي اليها "

فقال الدوق هذا هو رأيي ايضاً

وقالت الدوقة لم يخطر هذا الرأي ببالي قبلاً

وجلس لورد اسكدايل وشرب كاساً من الشراب وقال الدوق هذا رأي حسن فما قولكِ يا كاترين . فالتفتت الى لورد اسكدايل وقالت لهُ " ماذا تشير علينا ان نفعل اولاً . فقال دعوهُ يدخل الهيئة الاجتماعية انزلوا بهِ الى لندن . فقالت ولكن كيف افعل ذلك وانا نفسي لا اذهب الى مكان ولا احد يعرفهُ وهو لا يريد ان يعرف احداً . فقال اذا سمحتي لي فانا افعل ذلك فانني غداً ادع الدعوات تنهال عليهِ ولا يبقى عليكما الاّ ان تحتّاهُ على قبولها . فقالت وهذا ليس بالامر السهل عليّ . فقال اجعلي ذهابهُ الى حفلات الانس مدة بنائهِ اليخت شرطاً لقبولك بسفرهِ الى الارض المقدسة . وما من شابّ الاّ و يشعر بشيء من الحياء في اول الامر ولكنهُ متى عاشر الناس ودخل حفلاتهم يصير يحب صحبتهُ عنها . وقال الدوق اني لا امانع في ذلك الاّ اذا رأيتهُ مائلاً الى اللعب (القمار) . فنظرت الدوقة الى زوجها وقالت كيف تقول ذلك ونحن كنا عازمين ان نزوجهُ اولاً حتى نأمن عليهِ من الاشراك . يا ولدي اني اتصورهُ الآن والفخاخ منصوبة حولهُ

الفصل الخامس

قرّ القرار اخيراً على ان تنكرد يمضي الى بلاد الشام و يزور الارض المقدسة في يخت خاص يُصنَع لهذهِ الغاية تعطى ادارتهُ لربّان من ربّاني الاساطيل الانكليزية و يمضي معهُ الكولونل براس والمستر برنارد والدكتور روبي ورجل آخر عارف ببلاد المشرق يكون الخدم كلهم تحت امرهِ و يختارهُ اللورد اسكدايل لهذه الغاية . وقبل تنكرد بما فرضهُ عليهِ ابواهُ وهو ان يمتزج بالهيئة الاجتماعية الى ان يُعَدّ اليخت لهُ وحسبت امهُ انهُ لا بدّ من ان يشغف بحب ابنة خالهِ في غضون هذه المدة فيعدل عن السفر و يصير يستعمل اليخت لزيارتها في ارلندا

ودخل تنكرد الهيئة الاجتماعية اي مجتمعات الامراء والوجهاء في عاصمة البلاد الانكليزية فرحّب بهِ الجميع وصاروا يتسابقون الى دعوتهِ لانهُ من اكثر الناس ثروةً واعرضهم جاهاً .

(٨) فرضة للنزهة في شمالي جزيرة وبط ببلاد الانكليز

تشغل بالدعوات الكثيرة . واشراف الانكليز يعلنون انهم مدعوون في اليوم الفلاني الى هذا المكان وفي اليوم التالي الى آخر فيحسب العامة ذلك تنازلاً منهم ولا تتم هذه الغاية الاَّ في بلاد جرائدها حرة وعامتها متعبدة لخاصَّتها . والذين تشوقهم الدعوات الى بيوت الكبراء لا يعبأون بالدعوة من حيث ما يجدونهُ من المسرَّة في البيوت التي يُدعَوْن اليها بل يعبأون بها ليكتب اسمهم في لائحة المدعوين حتى يقال انهم من الذين يدعون الى بيت هذا الوزير وذلك العظيم

واتفق ان لورد منتكيوت فتح جريدة ذات يوم فرأى اسمهُ فيها رأى انهُ "دعي الى وليمة اول سنت جوليان والقونتة زوجتهِ وكانت الوليمة فاخرة ثم شوهد بعد ذلك في الاوبرة" . فلما قرأ ذلك احتدم غيظاً ولكنهُ وجد ان دخولهُ الهيئة الاجتماعية صار امرًا مقضيًّا ولو المَّهُ كثيرًا لانهُ كان يكره شهرةً نالها بولادتهِ من دوق كبير لا باعمال نبيلة عملها ولذلك كان يمضي في كل ساعات الفراغ الى المرافئ ويفتش فيها عن يخت ليسرع في سفرهِ على قدر الامكان واعلن عن ذلك في كل الجرائد وخافت امهُ ان يجد يختاً يرضيهِ فيسافر فيهِ حالاً واطلعت لورد اسكدايل على ذلك فطمَّن بالها وقال لها انهُ لا يجد ما يرضيهِ

وحدث ذات يوم ان دعي الى ليلة راقصة في بيت احد الوجهاء فلما ذكر الخدام اسمهُ احدقت كل عين بهِ ونظرت اليهِ احدى السيدات بنظارتها وقالت هذا لورد منتكيوت . واسرَّ المستر ارمسبي في اذن لورد فالنتين قائلاً كونوا على حذر ايها الشبان فانهُ ليس لكم خبز مع لورد منتكيوت . فقال لورد فالنتين ولكنهُ ذاهب الى القدس . فالتفت اليهِ لورد ملفورد وقال "كان اخي هناك بعد ضرب عكاء سنة ٣٩ وقال انهُ لا يوجد فيها شيء للصيد" فقال ارمسبي "كان فيها حجال في ايام ارميا النبي على ما قيل لنا يوم الاحد الماضي" وقال لورد فالنتين ان منتكيوت لا يهمهُ الصيد فسألهُ لورد ملفرد وماذا يهمهُ اذًا . فقال بلغني انهُ يفتش عن يخت يشتريهِ ليذهب بهِ الى الارض المقدسة . فدنا لورد بترك من لورد منتكيوت وقال لهُ متى تذهب الى اريحا فنظر اليهِ لورد منتكيوت وقال لهُ من هذه قال ذلك مشيرًا الى غادة غيداء تبدو على وجهها ملامح الذكاء ويظهر في قدها الجمال والدلال . فاجابهُ هذه لادي كونستانس رولي تعال اعرِّفها بك وهي من بنات عمي

وكان الازدحام كثيرًا في مدخل الرواق بين الداخلين الى غرفة الرقص والخارجين منها وهم يتطارحون موجز الحديث مثل قولهم . بلغني انك مضيت الى باريس . نعم وقد رجعت امس . ما اجمل هذه الرقصة . جميلة جدًّا . اتعلمين متى يعود بيت مدلثرب الى المدينة .

لا اعلم لان ابنتهم مريضة جدًّا . كذا بلغني مساكين ولن تبقى اموالهم كلها . هل اتى مستر كنسباي معك — كلاَّ بل هو في المجلس — بلغني انهُ شديد المواظبة على حضور الجلسات . نعم لانهُ يحبها . مبروك مبروك لا انسب منهُ لها ولا انسب منها لهُ . كذا يقال

وتحدَّث لورد منتكيوت مع لادي كونستانس ثم رقص معها وكان يراقب حركاتها ومكناتها على ما رأتهُ الامهات الخبيرات . وكانت هذه السيدة من الشهيرات بجمالهنَّ ويقال انها رفضت كثيرين من العظماء الذين اتوها خاطبين ولكن بعضهم لم يقطع الرجاء من رضاها ولذلك قيل انها لم تظهر لهم انها رفضتهم رفضًا باتًّا . ويقال ايضًا انها تعرف كيف ترضي وكيف تُغضب وكيف تحنن وكيف تسيء . ورافقها تنكرد الى غرفة الاردية حيث لبست الرداء الذي تخرج بهِ وتعود الى بيتها وعرَّفت امها بهِ هناك ولما ارادت وداعهُ قال لها يسوءني هذا الفراق . فتبسمت وقالت وانا كذلك ولكن لا اسهل من لقاء الاصدقاء كل يوم . فقال لها لا اعلم اين التقي بك غدًا الاَّ اذا كنت عازمة ان تتعشي عند رئيس اساقفة يورك فقالت لهُ انني ذاهبة الى بيت مسز فلونسي وسيذهب كل احد الى هناك فعلى مَ لا تذهب انت ايضًا . فقال لانني لم أُدعَ اليهِ وزد على ذلك فاني مضطر ان افتش عن بخت . فقالت فتش عنهُ يوم الاثنين وتعال معنا غدًا الى بيت مسز فلونسي وهناك ترى اخي وتسألهُ عن بخت وهو ادرى الناس بذلك . فقال سأفعل ثم مدَّ لها يدهُ وساعدها على ركوب مركبتها

ستأتي البقية

تقدم الجراحة هذا القرن

لحضرة الدكتور وديع بربارى طبيب مستشفى الزقازيق

يهمُّ القراء عمومًا والاطباء خصوصًا بعد ان رأوا تقدُّم الجراحة وتمتعوا بفوائد الاكتشافات الحديثة فيها ان يعرفوا الحالة التي كانت عليها في بداءة هذا القرن . فالجراحة من اهم فروع الطب ولتقدُّمها ونتائجها حسنةً اكثر من التقدم في علاج الامراض الباطنة وبها تخفيف الآلام ولاسيما في زمن الحروب حيث يقع الجرحى بالالوف ويتألمون آلامًا يرقُّ لها الجماد ولا تخففها الاَّ الوسائل الجراحية . نعم ان العقل يقف حائرًا عندما يراجع حالة هذا العلم في بداءة القرن التاسع عشر ويقابلها بحالتهِ في آخر ستةٍ منهُ فيشعر بفضل المكتشفين الذين خدموا نوع الانسان خير خدمة فاستحقوا الشكر الجزيل وقد اتيح لبعضهم مثل اللورد لستر ان يبقى في قيد